

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس الأول

الحمد لله رب العالمين، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.
اللَّهُمَّ علِّمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

أما بعد؛ فهذه الرسالة التي نحن بصدد قراءتها رسالة قيّمة في بابها، لإمام جليل تتميز مؤلفاته عموماً بالنقول المفيدة لكلام السلف رحمهم الله تعالى، مع تنبيهات دقيقة ولطائف جميلة يُعنى بها رَحِمَهُ اللهُ، يربطك من خلالها بالسلف نهجاً وسلوكاً، خلقاً وأدباً، علماً وعملاً.

وقد أفرد رَحِمَهُ اللهُ هذه الرسالة في «شرح حديث أبي الدرداء في فضل طلب العلم»، وهو حديث جامع جمع فضائل عظيمة ينالها طالب العلم في سلوك هذا السبيل، وقد اعتنى رَحِمَهُ اللهُ بشرح جمل هذا الحديث والفضائل التي اشتمل عليها جملةً جملة، فأحسن وأفاد وأجاد، فنسأل الله عَزَّوَجَلَّ أن يبارك لنا في مجلسنا هذا وأن يجعله باب خير علينا أجمعين، وأن ييسر لنا اليسرى وأن يجنبنا العسرى، وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً، وأن يُصلح لنا شأننا كله وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين.

ونشرع في قراءة هذه الرسالة مستعينين بالله، مستمنحين منه التوفيق والتسديد جلّ في علاه.

قال العلامة الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السلامي البغدادي ثم الدمشقي الحنبلي في رسالته «شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم»:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه، من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليماً كثيراً.

خرج الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه في كتبهم: أن رجلاً قدم من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق، فقال: ما أقدمك يا أخي؟! قال: حديثٌ بلغني أنك تُحدثُهُ عن رسولِ الله ﷺ.

قال: أما جئت لحاجة؟ قال: لا. قال: أما قدمت لتجارة؟

قال: لا. قال: ما جئت إلا في طلبِ هذا الحديث؟ قال: نعم.

قال: فإنني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَضَعُ أَجْنَحَتَهَا رِضًى لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لِيَسْتَغْفِرَ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْحَيَاتَانِ فِي الْمَاءِ، وَفَضْلُ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَ بِهِ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ».

هذا الحديث حديث عظيم جداً، وقد جمع فيه النبي عليه الصلاة والسلام فضائل جليلة عظيمة الشأن، ينالها طالب العلم إذا وفقه الله ﷻ لسلوك هذا الطريق.

والحديث حديثٌ ثابت محتجٌ به، وإن كان السند فيه ضعف لأن في إسناد هذا الحديث داود بن جميل وكثير بن قيس وهما ضعيفان، لكن الحديث صحيح لما له من شواهد ولما له من متابعات تدل على صحته وأنه محتجٌ به، وحوى هذا الحديث فضائل عظيمة لطالب العلم عندما يسلك هذا السبيل - سبيل طلب العلم.

وكان لرواية الصحابي الجليل لهذا الحديث قصّة ومناسبة: وهي أن رجل قدم من المدينة على أبي الدرداء وهو بدمشق - من المدينة إلى دمشق -، واستحضر في ذهنك أن الرحلة من المدينة إلى دمشق في ذلك الوقت ليست كالرحلة في وقتنا هذا، ففي وقتنا هذا تقطع هذه المسافة بالطائرة بساعة أو ساعتين بالكثير، وبالسيارة في حدود عشر ساعات، أما في ذلك الوقت فهو يحتاج إلى شهر كامل سفرًا حتى يصل إلى دمشق، فرحل تلك المدة الطويلة وما في السفر من عناء ومشقة وتعب ليلقي هذا الصحابي الجليل

يتعلَّم عليه العلم ويأخذ عنه.

فسأله أبو الدرداء: (ما أقدمك يا أخِي) لأي شيء جئت من المدينة؟!

(قال: حديثٌ بلغني أنك تُحدِّثُ) به (عن رسول الله ﷺ).

قال: أما جئت لحاجةٍ) يعني ما لك عمل آخر، حاجة أخرى، شغلة أخرى-؟ (قال: لا).

قال: أما قدِّمتَ لتجارةٍ؟ قال: لا.

قال: ما جئتُ إلَّا في طلبِ هذا الحديثِ؟ قال: نعم.)

فانظر الهمة العالية الكبيرة والحرص القائم في قلوبهم على تعلم حديث رسول الله ﷺ، ولهذا كان الواحد منهم يرحل لأجل حديث واحد، ويرى أنه فاز بغنيمة عظيمة عندما يحصل حديثاً في رحلته أو حديثين؛ فهذا يدلُّ على علو الهمة وكبر الرغبة في العلم وتحصيله.

قال أبو الدرداء: (فإنِّي سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ:

«مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ،

وإنَّ الملائكةَ تَضَعُ أَجْنَحَتَهَا رِضًى لِطَالِبِ الْعِلْمِ) رضا بما يطلب،

(وإنَّ العالمَ لِيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ،

وَفَضَّلَ الْعَالِمُ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ،

وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا إِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ؛ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِظٍّ

وَافِرٍ»).

فهذه خمس فضائل.. خمس جمل في كل جملة فضيلة في طلب العلم.

والحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ في هذه الرسالة شرح هذه الجمل جملة جملة، وقف مع كل جملة وفصل

فيها تفصيلاً نافعاً للغاية، لكنه بدأ بالرحلة لطلب العلم وفضلها وهمة السلف العالية في ذلك.



قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

وكان السلف الصالح رَحِمَهُمُ اللَّهُ لقوة رغبتهم في العلم والدين والخير يرتحل أحدهم إلى بلد بعيد لطلب

حديث واحد يبلغه عن النبي ﷺ.

وقد رحل أبو أيوب الأنصاري من المدينة إلى مصر للقاء رجل من الصحابة بلغه عنه حديث يحدثه

عن النبي ﷺ

أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه هو الذي نزل النبي عليه الصلاة والسلام عنده لما وصل إلى المدينة، وخصّه بالنزول عليه في بني النَجَّار كما يُعلم ذلك في السيرة عندما دخل النبي ﷺ المدينة، والصحابي الذي رحل إليه أبو أيوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو عُقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد جاء في «المسند» للحميدي وفي بعض المصادر أن أبا أيوب خرج إلى عُقبة بن عامر وهو بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ، لم يبق أحد سمعه من رسول الله ﷺ غيره وغير عُقبة، فقدم عليه وسأل عن منزله وتعانقا، ثم حدّثه بالحديث وهو حديث «من ستر مؤمناً في الدنيا على خزيه ستره الله يوم القيامة»، فرحل من أجل هذا الحديث الواحد.



قال المصنف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تعالى:

وكذلك فعل جابر بن عبد الله الأنصاري مع كثرة ما سمع من النبي ﷺ من الحديث وروى.

جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رحل مع كثرة ما روى من الأحاديث عن رسول الله ﷺ رحل في مسيرة شهر من أجل حديث واحد، ورحلته كانت إلى عبد الله بن أنيس الصحابي الجليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، فرحل إليه؛ لأنه بلغه أن عنده حديثاً عن رسول الله ﷺ لم يسمعه، فأتاه إلى داره بعد أن رحل إليه شهراً كاملاً، واعتنقا عند داره وقال: جئتُ من أجل حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ في المظالم لم أسمعه، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه.. حديث واحد ورحل شهراً كاملاً من أجله.

والحديث في «الأدب المفرد» للبخاري وفي مصادر عديدة، وهو حديث ثابت؛ وهو أن النبي ﷺ قال: «يحشر الله الناس حفاة عراة غرلاً بهماً»، قالوا: وما بهماً يا رسول الله؟ قال: «ليس معهم من الدنيا شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قُرب، فيقول: أنا الملك أنا الديان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولأحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقتصّها منه، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولأحد من أهل الجنة عليه مظلمة حتى أقتصّها منه».

وجاء في بعض الروايات أنه قال: «حتى اللطمة»، قلنا: يا رسول الله؛ كيف ذلك وهم إنما جاءوا بهماً؟ قال: «بالحسنات والسيئات» يعني يؤخذ من حسنات الظالم وتُعطى للمظلوم، فإن فُتيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من سيئات المظلوم وطُرح على الظالم فطُرح في النار، نسأل الله ﷻ العافية.



وكان أحدهم يرحل إلى من هو دونه في الفضل والعلم لطلب شيء من العلم لا يجده عنده.

ويكفي في هذا المعنى ما قصَّ الله علينا من قصة موسى عليه السلام وارتحاله مع فتاه، فلو استغنى أحد عن الرحلة في طلب العلم لاستغنى عنها موسى عليه السلام؛ حيث كان الله قد كملَّه وأعطاه التوراة التي كتب له فيها من كل شيء، ومع هذا فلمَّا أخبره الله ﷻ عن الخضر، أن عنده علمًا يختص به سأل السبيل إلى لقائه، ثم سار هو وفتاه إليه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف].

يعني: سنين عديدة، ثم أخبر أنه لمَّا لقيه قال له: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلِمتَ رُشدًا﴾ [الكهف].

وكان من أمرهما ما قصَّه الله في كتابه. ومن حديث أبي بن كعب عن النبي ﷺ في قصة موسى والخضر مخرَّج في «الصحيحين» وهو مشهور.

وكان ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: "والله الذي لا إله إلا هو ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مِنِّي بكتاب الله تَبْلُغُهُ إلا بِلِ رَكِبتُ إليه".

وقال أبو الدرداء: "لو أعيتني آية من كتاب الله فلم أجد أحدًا يفتحها عليَّ إلا رجلٌ بَركَ الغمادِ لرحلتُ إليه". وبرك الغماد أقصى اليمن.

وخرج مسروق من الكوفة إلى البصرة لرجل يسأله عن آية من كتاب الله فلم يجد عنده فيها علمًا، فأخبر عن رجل من أهل الشام فرجع إلى الكوفة، ثم خرج إلى الشام إلى ذلك الرجل في طلبها. ورحل رجل من الكوفة إلى الشام إلى أبي الدرداء يستفتيه في يمين حلفها.

هذا الرجل الذي رحل إلى أبي الدرداء يستفتيه عن هذه اليمين؛ وذلك أن أمه -أي هذا الرجل- أمرته أن يفارق زوجته، فرحل إلى أبي الدرداء يسأله في ذلك، فقال له أبو الدرداء: ما أنا بالذي آمرك أن تطلق وما أنا بالذي آمرك أن تُمسِك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الوالد أوسط أبواب الجنة»، فأضع ذلك الباب أو احفظه، قال: فرجع الرجل وقد فارقه.



ورحل سعيد بن جبير من الكوفة إلى ابن عباس بمكة يسأله عن تفسير آية.

وهذا في «الصحيحين» كان سأل عن تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾

[النساء: ۹۳].



ورحل الحسن إلى الكوفة إلى كعب بن عجرة يسأله عن قصته في فدية الأذى.

كعب بن عجرة هو الذي نزلت فيه الآية الكريمة في سورة البقرة ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِّيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ﴾ [البقرة: ۱۹۶] وهي تسمى فدية الأذى، فرحل الحسن إلى الكوفة إلى هذا الصحابي يسأله عن قصته في فدية الأذى، والتي نزل بسببها تلك الآية.



واستقصاء هذا الباب يطول.

اكتفى بهذا القدر، يعني ذكر أمثلة جميلة وعديدة، وأشار إلى أن استقصاء هذا الباب يطول، ومن أراد المزيد فليقرأ في هذا الباب كتاباً للخطيب البغدادي رَحِمَهُ اللهُ سَمَاهُ «الرحلة في طلب الحديث»، وما ذكره المصنّف هنا وغيره كثير جمعه الخطيب رَحِمَهُ اللهُ في الكتاب المشار إليه.



وحلف رجلٌ يميناً فأشكلت على الفقهاء، فدلَّ على بلدٍ فاستبعده فقليل له: إن ذلك البلد قريب على من أهمّه دينه.

(قليل له: إن ذلك البلد قريب على من أهمّه دينه)، والقرب هنا معنوي فالمسافة الطويلة تقصر لمن كانت عنده همة عالية، ومَرَّتْ معنا نماذج من همم السلف العالية في طلب العلم والرحلة في طلبه.



وفي هذا إشارة إلى أن من أهمّه أمر دينه كما أهمّه أمر دنياه، إذا حدث له حادثة في دينه لا يجد من يسأله عنها إلا في بلد بعيد؛ فإنه لا يتأخر عن السفر إليه ليستبرئ لدينه، كما أنه لو عُرض له هناك كسب دنيوي لبادر السفر إليه.

يعني كثير من الناس إذا عرضت له حاجة دنيوية وأدرك أن مثلاً خبيراً بهذا الأمر في بلد ما يرحل إليه حتى يأخذ عنه تلك الحاجة بشكل دقيق، وأمر الدين أعظم وشأنه أرفع.



وفي هذا الحديث أن أبا الدرداء بشر من أخبره أنه رحل إليه لطلب الحديث بما سمعه من النبي ﷺ في فضل العلم وطلبه، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ

رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةِ ﴿[الأنعام: ٥٤]﴾.

أبو الدرداء في الحديث الذي صنّف ابن رجب هذه الرسالة في شرحه، بشر هذا الذي قدّم إليه بهذا الحديث، ولهذا هذا الحديث يُبشّر به طُلاب العلم، ومن بدأ في طلب العلم يبشّر بهذا الحديث يقال له: هنيئًا لك هذا السبيل، فقد قال النبي ﷺ. ويورد له هذا الحديث.

بل على مر التاريخ خلق من الناس سمعوا هذا الحديث فحرّك فيهم الهمة في طلبه، مجرد سماع، سمعه وتأمل في هذه المعاني والفضائل الجليلة التي اشتمل عليها الحديث فتحرّكت في قلبه همة عالية، وكيف لا وقد حوى فضائل عظيمة جدًا جُعِلت لمن سلك هذا السبيل.



وقد ازدحم الناس مرة على باب الحسن البصري لطلب العلم، فأسمعهم ابنه كلامًا، فقال الحسن: "مهلاً يا بني"، ثم تلا هذه الآية.

يعني قد يكون ابنه انزعج من تراحمهم عند البيت وحرصهم على ملاقة الحسن والأخذ عنه، فربما أنه أسمعهم كلامًا لا يناسب في حقهم أو في مقامهم فقال له: مهلاً يا بني، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴿[الأنعام: ٥٤]﴾، فمن رحل واغترب عن بلده ومُنِيته وبُغِيته العلم وهِمَّته، فحق من حقوقه أن يقابل برحابة الصدر والبشاشة والترحيب، والشّد على يده في هذا الطريق المبارك الذي بدأ يخطو سبيله.



وفي كتاب الترمذي وابن ماجه عن أبي سعيد: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَصَّاهُمْ بِطَلَبَةِ الْعِلْمِ وَالْمُتَفَقِّهِينَ فِي الدِّينِ خَيْرًا".

و(خيرًا) هذه يدخل تحتها كل معاني اللطف والرفق، والترحيب والبشاشة وحُسن المعاملة، والشّد على أيديهم ونحو ذلك من معاني الخير.



وجاء زر بن حبیش إلى صفوان بن عسال في طلب العلم قال له: بلغني «أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ».

وفي رواية أنه روى له ذلك عن النبي ﷺ.

وهذه فضيلة واحدة في الحديث حرّكت زر بن حبیش، والحديث فيه خمس فضائل؛ لكن فضيلة واحدة

قال: بلغني «أَنَّ الْمَلَائِكَةَ تَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْمِ رِضًا بِمَا يَصْنَعُ»، فلما سمع هذه الفضيلة التي ينالها طالب العلم تحرّكت في نفسه الذهاب إلى أهل العلم وطلب العلم عليهم والأخذ عنهم. وطالب العلم وهو يمشي في طلب العلم ويسلك سبيله لا يرى الملائكة وهي تضع أجنحتها له، وإذا جلس في مجلس العلم لا يرى الملائكة وهي تحف المجلس بأجنتها رِضًا بما يصنع، كما صحّت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

فهو وإن كان لا يرى ذلك فهو منه على يقين لأن هذا كلام الصادق المصدوق ﷺ، فهو وإن كان لا يراهم موقن بذلك وأنها تضع أجنتها لطالب العلم رِضًا بما يصنع، "تضعها" تفرشها لطالب العلم رِضًا بما يصنع، وتحفّه في مجلس العلم بأجنتها، وإذا جاءت الملائكة أن الله ملائكة فُضلاً يبتغون مجالس العلم، فإذا وجدوا مجلس علم قالوا: هلمّوا إلى حاجتكم، يعني بغيتهم هذه المجالس، يفرحون بها ويحفّون أهل تلك المجالس بأجنتهم.

فالحاصل وإن كان طالب العلم لا يرى شيئاً من ذلك؛ لكنه متيقّن من هذا الأمر؛ لأن الذي أخبر به الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى.

ومن أعظم صفات المؤمنين ما ذكره الله في أول سورة البقرة ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة] أي: بكل ما غاب عنهم مما أخبرتهم به رسل الله.



وازدحم الناس مرة على باب ابن المبارك فقال: حَقَّ لَهُمْ مِنْ وِلَايَةِ سُرُورِ الْأَبْدِ. يغبطهم بازدهامهم على طلب العلم؛ لأنّه يؤدي إلى الخلود في النعيم المقيم.

ولهذا تأسف معاذ بن جبل عند موته وبكى على مفارقة مجالس الذكر فقال: "إِنَّمَا أَبْكِي عَلَى ظَمَأِ الْهَوَاجِرِ، وَقِيَامِ لَيْلِ الشِّتَاءِ، وَمُزَاحِمَةِ الْعُلَمَاءِ بِالرُّكْبِ عِنْدَ حَلْقِ الذِّكْرِ".

ما بكى على شيء من أمور دنياه، وإنما بكى عند موته على اللذة التي كان يجدها، والفائدة العظيمة التي كان يحصّلها في مجالس العلم وقيام الليل، فهذا الذي كان يبكي على فقدّه عند موته. وهذا يدلّ على أن مجالس العلم لها لذّة ولها مكانة في قلوب طُلاب العلم، ولها ذوق وطعم وحلاوة يجدونها.



وينبغي للعالم أن يرحّب بطلبة العلم ويوصيهم بالعمل، كما قال الحسن لأصحابه وقد دخلوا عليه:

"مرحبًا بكم وأهلاً، حَيَّاكُمُ اللهُ بِالسَّلَامِ، وأدخلنا وإيَّاكُمُ دار السَّلَامِ، هَذِهِ عَلَانِيَةٌ حَسَنَةٌ إِنْ صَبَرْتُمْ وَصَدَقْتُمْ وَأَيْقَنْتُمْ، لَا يَكُونَنَّ حَظُّكُمْ مِنْ هَذَا الْخَيْرِ رَحِمَكُمُ اللهُ أَنْ تَسْمَعُوهُ بِهَذِهِ الْأُذُنِ فَيَخْرُجُ مِنْ هَذِهِ الْأُذُنِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ لَمْ يَرَ مُحَمَّدًا ﷺ فَقَدْ رَأَاهُ غَادِيًا وَرَائِحًا لَمْ يَضَعْ إِلَى اللهِ لَبَنَةً عَلَى لَبَنَةٍ وَلَا قَصَبَةً عَلَى قَصَبَةٍ، وَلَكِنْ رُفِعَ لَهُ عِلْمٌ فَشَمَّرَ إِلَيْهِ، أَلُوْحَا أَلُوْحَا.. النَّجَا النَّجَا.. عَلَامٌ تَعْرِجُونَ؛ أَتَيْتُمْ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ كَأَنَّكُمْ وَالْأَمْرُ مَعًا".

وهذا الأثر فيه كما قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ فِيهِ أَمْرَانِ: التَّرحيبُ بِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَنَصْحُهُ وَحَثُّهُ عَلَى الْعَمَلِ بِالْعِلْمِ.

فَيُرْحَبُ بِهِ وَيَلْقَى بِالْتَّرْحَابِ وَحَسَنِ التَّحِيَةِ، وَالبِشَاشَةِ وَطَلَاقَةِ الْوَجْهِ يُرْحَبُ بِهِ، وَيُوصَى فِي الْوَقْتِ نَفْسِهِ بِالْعَمَلِ بِهَذَا الْعِلْمِ، وَأَنْ مَقْصُودَ الْعِلْمِ الْعَمَلُ مِثْلُ مَا قَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "مَقْصُودُ الْعِلْمِ الْعَمَلُ، فَإِنْ أَجَابَهُ وَإِلَّا ارْتَحَلَ" مَا يَبْقَى، وَلِهَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُنَبِّهَ طَالِبُ الْعِلْمِ فِي طَلَبِهِ لِلْعِلْمِ، أَنَّ الْمَقْصُودَ فِي الطَّلَبِ وَاسْتِمَاعِ الْعِلْمِ وَحُضُورِ مَجَالِسِهِ وَقِرَاءَةِ كُتُبِ الْعِلْمِ.. الْمَقْصُودُ مِنْهُ هُوَ أَنْ يَعْمَلَ بِهَذَا الْعِلْمِ وَأَنْ يَكُونَ مِنْ أَهْلِهِ، وَلَا يَكُونَ مِنْ أَهْلِهِ إِلَّا بِالْعَمَلِ بِهِ.



ولنشرع الآن في شرح حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الَّذِي رَوَاهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.

فَقَوْلُهُ ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: «سَهْلٌ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ».

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ».

هَذِهِ الْآنَ الْجُمْلَةُ الْأُولَى مِنَ الْحَدِيثِ، وَهِيَ تُعَدُّ الْفَضِيلَةُ الْأُولَى مِنْ فَضَائِلِ طَلَبِ الْعِلْمِ، وَأَنَّهُ «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»، وَيَشْهَدُ لِهَذِهِ الْفَضِيلَةِ مَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ».

وَالْجَنَّةُ يَكُونُ دُخُولُهَا بِالْعَمَلِ ﴿أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل]، ﴿يَلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف]، وَالْعَمَلُ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ إِلَّا بِالْعِلْمِ، فَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَلِهَذَا يَتَأَكَّدُ الْأَمْرُ أَوِ الْوَصِيَّةُ الْقَرِيبَةُ الَّتِي مَرَّتْ مَعَنَا أَكَّدَ عَلَيْهَا ابْنُ رَجَبٍ وَهِيَ: أَنْ

طالب العلم ينبغي أن يوصى بالعمل، فإذا سلك طالب العلم سبيل العلم وهيمته متجهة للعمل بما يتعلم، صار هذا طريقاً سهلاً ميسراً إلى جنات النعيم، جعلنا الله ﷻ أجمعين من أهلها الفائزين بها.



سلوك الطريق لالتماس العلم:

يُحتمل أن يُراد به السلوك الحقيقي، وهو المشي بالأقدام إلى مجالس العلم. ويحتمل أن يشمل ما هو أعم من ذلك من سلوك الطريق المعنوية المؤدية إلى حصول العلم، مثل حفظه ودراسته، ومطالعتة ومذاكرته، والتفهُم له والتفكر فيه، ونحو ذلك من الطرق التي يتوصل بها إلى العلم.

أي أنه يشمل هذا وهذا، فقول النبي ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا» يشمل المشي والسير في طلب العلم، ويشمل الجلوس في مجالس العلم، ويشمل السماع للعلم الذي يُلقى وحسن الاستماع له، ويشمل تقييد العلم بالكتابة، ويشمل الجلوس لحفظ العلم وتكراره حتى يثبت ويكون راسخاً.. كل هذا من سلوك طلب العلم، والحديث يشمل ذلك كله، فمن سلك طريقاً يطلب فيه علماً بالمشي والجلوس، والسماع والكتابة، والحفظ والمذاكرة وغير ذلك «سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ».



وأما قوله: «سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ».

فإنه يحتمل أموراً:

منها: أن يسهل الله لطالب العلم الذي طلبه وسلك طريقه وييسره عليه؛ فإن العلم طريق موصل إلى الجنة، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر]. قال طائفة من السلف في هذه الآية: هَلْ مِنْ طَالِبٍ عِلْمٍ فَيَعَانُ عَلَيْهِ؟

الآن انتبه إلى فائدة مهمة ينبّه عليها الحافظ ابن رجب مستفادة من قوله: «سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ» وهنا ينبّه على فائدة عظيمة وهي أن طالب العلم إذا سلك طريق العلم سيحظى في سلوكه لطلب العلم أنواعاً من التسهيلات، كلها تدخل تحت قوله: «سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ».

فمن هذه التسهيلات أولاً: أن يُسهَّلَ له الطلب نفسه، فيجد نفسه التي أقبلت على العلم سهلاً عليه حفظه، سهلاً عليه سماعه، سهلاً عليه الصبر على تلقيه، سهلاً عليه فهمه، فيجد أن الله ﷻ ييسر له أنواع من التسهيلات كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر] قال طائفة من

المفسرين أخذًا من هذه الآية: هل من طالب علم فيُعان عليه؟ هذا معنى الآية.. اطلب العلم والله يعينك وييسر لك هذا السبيل، هذا النوع الأول.

الثاني:



ومنها: أن ييسر الله لطالب العلم العمل بمقتضى ذلك العلم إذا قصد بتعلمه وجه الله، فيجعله الله سببًا لهدايته والانتفاع به والعمل به، وذلك من طرق الجنة الموصلة إليها.

هذا التسهيل الثاني الذي ينال طالب العلم وهو أن يسهل له العمل، وينشرح صدره للعمل ويُقبل على العمل، فهذا أيضًا من التيسير والتسهيل الذي يناله طالب العلم.



ومنها: أن الله تعالى ييسر لطالب العلم الذي يطلبه للعمل به علومًا آخر ينتفع بها؛ فيكون طريقًا موصلاً إلى الجنة، وهذا كما قيل: مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلَّمَ أَوْرَثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، وكما يقال: "ثَوَابُ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا"، وإلى هذا إشارة بقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [١٧] [محمد].

فمن التمس العلم ليهتدي به زاده الله هدى وعلومًا نافعة، توجب له أعمالًا صالحة، وكل هذه طرق موصلة إلى الجنة.

هذا الآن أيضًا نوع آخر من التسهيل لطالب العلم، فمن التسهيل لطالب العلم أن ييسر الله لطالب العلم الذي يطلب العلم للعمل به علومًا أخرى، فيفتح له أبوابا من العلم ويسهل له مجالسا من العلم ينشرح صدره لها، فإذا كان يتعلم وله همّة بالعمل تفتح له أبواب، ولا يزال هكذا تفتح له أبواب من العلم يدخل في العلم شيئًا فشيئًا خطوة خطوة حتى يتسع علمه بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، "مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلَّمَ أَوْرَثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ" وهذا كما يقال: ثواب الحسنة الحسنة بعدها، أيضًا مثل هذا تعبير بعض أهل العلم "أن الحسنة تنادي أختها".

وأيضًا يُستدل لهذا بالآيات التي ذكر: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [١٧] [محمد].

وأيضًا مثل هذا قول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣]، والإمام ابن سعدي له كلام جميل يُراجع في تفسير هذه الآية، ذكر شيئًا قريبًا من هذا المعنى.



ومنها: أن الله تعالى قد ييسر لطالب العلم الانتفاع به في الآخرة، وسلوك الطريق الحسن المفضي إلى الجنة وهو الصراط وما بعده، وما قبله من الأهوال العظيمة والعقبات الشديدة الشاقة.

هذا أيضًا من التسهيل الذي ينال طالب العلم، وهو أن ينال في الآخرة التسهيل لمجاوزة الصراط الذي يُنصب على متن جهنم، ويصل إلى الجنة بسلام ويقال له: ﴿طَبَّتُمْ فَأَدْخُلُوهَا خَلِيدِينَ﴾ [الزمر] هذا كله من التسهيل الذي يناله طالب العلم.



وسبب تيسير طريق الجنة على طالب العلم؛ إذا أراد به وجه الله ﷻ وطلب مرضاته: أن العلم يدل على الله من أقرب الطرق وأسهلها، فمن سلك طريقه ولم يعوج عنه وصل إلى الله وإلى الجنة من أقرب الطرق وأسهلها، فتسهلت عليه الطرق الموصلة إلى الجنة كلها في الدنيا وفي الآخرة. ومن سلك طريقًا يظنه طريق الجنة بغير علم، فقد سلك أعسر الطرق وأشققها، ولا يوصل إلى المقصود مع عسرة شديدة.

فلا طريق إلى معرفة الله وإلى الوصول إلى رضوانه والفوز بقربه ومجاورته في الآخرة إلا بالعلم النافع، الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه، فهو الدليل عليه وبه يهتدى في ظلمات الجهل والشبه والشكوك، وقد سمى الله كتابه نورًا يهتدى به في الظلمات.

كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٦﴾ [المائدة].

أيضًا مثلها قول الله ﷻ في آخر الشورى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكِتَابُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، فمن الأمور التي يُنبه عليها في هذا المقام أن سبب التيسير للجنة والوصول إليها أن العلم هو نورٌ لصاحبه يُبصر من خلاله الطريق الذي يوصل إلى الجنة بسهولة ويسر، ومن سلك للجنة طريقًا ليس قائمًا على العلم فهو طريقٌ عسير وفي الوقت نفسه لا يوصل إلى الجنة.

والجنة إنما يوصل إليها بالعلم النافع المستمد من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، أما من لم يكن عمله وسيره للجنة قائمًا على العلم النافع المستمد من الكتاب والسنة فإن عمله مردودٌ عليه؛ لقول النبي ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» ولا يُعرف العمل أهو من أمر الرسول ﷺ أو ليس من أمره إلا بالعلم

الشرعي المستمد من الكتاب والسنة.



وقد ضرب النبي ﷺ مَثَلٌ مَنْ حَمَلَ الْعِلْمَ الَّذِي جَاءَ بِهِ بِالنُّجُومِ الَّتِي يَهْتَدَى بِهَا فِي الظُّلُمَاتِ، كَمَا فِي «الْمُسْنَدِ» عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ مَثَلَ الْعُلَمَاءِ فِي الْأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، فَإِذَا طُمِسَتِ النُّجُومُ أَوْشَكَ أَنْ تَضِلَّ الْهُدَاةُ».

(الهُدَاة) الذين يدلون الناس في الليل، خاصة في الزمان الأول فإنهم كانوا يعتمدون على النجم في سيرهم ﴿وَعَلَّمَتِ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ١٦﴾ [النحل]، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧].

فالنجوم من فوائدها أنها علاماتٌ يهتدى بها، فلو طُمِسَتِ النجوم في الليل الدامس كيف يعرف الناس الطريق؟ مثله تمامًا لو كان الناس بلا علم، ولو بقي الناس بلا علم وبدون علماء يهدونهم إلى العلم الشرعي يكونون كما قال بعض السلف مثل البهائم، لم يميّزهم عن البهائم إلا العلم الشرعي النور الذي يدلُّهم على الحق ويدلهم على الهدى، ويهديهم إلى صراط الله المستقيم.



وهذا مثل في غاية المطابقة؛ لأنَّ طريق التوحيد والعلم بالله تعالى وأحكامه، وثوابه وعقابه لا يُدْرَك بالحس، إنما يعرف بالدليل، وقد بين ذلك كله في كتابه وعلى لسان رسوله.

في الآية التي مرّت معنا في سورة الشورى قال الله ﷻ لنبيه: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتَدُبُ وَلَا الْإِيْمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ [الشورى]، فالتوحيد والعلم بالله وبأسمائه وصفاته وأحكامه، وجزائه وجنته وناره، هذه أمور لا تُعرف بالحس ولا بمجرد العقل، لا بد من وحي منزل تُعرف به هذه الأمور، فلا سبيل إلى ذلك إلا بالعلم المتلقّى من مشكاة النبوة التي هي وحي الله ﷻ وتنزيله.



فالعلماء بما أنزل الله على رسوله هم الأدلاء الذين يهتدى بهم في ظلمات الجهل والشبه والضلال، فإذا فقدوا ضل السالك.

(إذا فُقدوا ضل السالك) أي إذا فقد العلماء يضلّ السالك الطريق، فما يستطيع أن يهتدي إلى الطريق الصحيح إلا بالعلم والأخذ عن حملته ورجاله.



وقد شُبّه العلماء بالنجوم، والنجوم في السماء فيها ثلاث فوائد: يهتدى بها في الظلمات، وهي زينة للسماء، ورجومٌ للشياطين الذين يسترقون السَّمع منها.

والعلماء في الأرض تجتمع فيهم هذه الأوصاف الثلاثة: بهم يهتدى في الظلمات، وهم زينة للأرض، وهم رجوم للشياطين الذين يخلطون الحق بالباطل، ويُدخلون في الدين ما ليس منه من أهل الأهواء، وما دام العلم باقياً في الأرض فالناس في هدى.

وبقاء العلم بقاء حملته، فإذا ذهب حملته ومن يقوم به وقع الناس في الضلال، كما في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ صُدُورِ الرِّجَالِ، وَلَكِنْ يَذْهَبُ الْعِلْمُ بِذَهَابِ الْعُلَمَاءِ، فَإِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوسًا جُهَالًا فَسَيَلُّوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا».

نعم، بقاء العلم بقاء حملته ورجاله، وقبض العلم بقبض العلماء؛ لأن العلماء الذين أكرمهم الله ﷻ بتعلم العلم والصلوع فيه والرسوخ، هم علامات ومنازل هدى وأدلاء للخير وهداة للخلق، فلا يكون قبض العلم بانتزاعه من صدور حملته وإنما يكون قبضه بقبض العلماء.



وخرج الترمذي من حديث جبير بن نفير، عن أبي الدرداء قال: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «هَذَا أَوَانٌ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ»، فقال زياد بن ليبيد: كيف يُخْتَلَسُ مِنَ الْعِلْمِ، وقد قرأنا القرآن؟! فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساءنا وأبناءنا، فَقَالَ: "تَكَلِّتُكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إِنْ كُنْتُ لَأَعُدُّكَ مِنْ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ، هَذِهِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟! قَالَ جُبَيْرُ بْنُ نَفِيرٍ: فَلَقِيتُ عَبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ فَقُلْتُ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ أَبُو الدَّرْدَاءِ؟ فَأَخْبَرْتُهُ بِالَّذِي قَالَ، فَقَالَ: صَدَقَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، كَوْنُ شَيْءٍ لَأُخْبِرْتُكَ بِأَوَّلِ عِلْمٍ يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ: الْخُشُوعُ، يُوْشِكُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَ الْجَامِعِ فَلَا تَرَى فِيهِ خَاشِعًا.

نسأل الله العافية، والخشية رأس العلم؛ لأن العلم له ثمار مهمة في باطن الإنسان وهي أهم ما يكون، فالعلم الصحيح وحسن التلقي له يُثمر الخشية، يُثمر الخشوع، يُثمر الإخلاص، يُثمر صلاح النية؛ لأنه لا يزال وهو يطلب العلم يقف على ما يسانده ويُعينه على تحقيق هذه المقاصد والمطالب العظيمة ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فهذا إذا كان في خطواته في طلب العلم يسلك المسلك الصحيح الذي أوصى به السلف، وهو أن يتعلّم ليعمل وليجاهد نفسه على العمل، أما إذا كان يتعلّم ومن نيته فقط أن يقال: عالم أو أن يستكثر من العلم، أو أن يُعرف بالعلم أو غير ذلك من المقاصد الدنيوية، فقد تحصل

وقد يقال له ذلك.. قد يقال: حافظ، وقد يقال: قارئ، وقد يقال: عالم؛ لكن هذا لا ينفعه يوم القيامة وإنما الذي ينفعه في تلك الدار الإخلاص والصدق مع الله ومجاهدة النفس على العمل بالعلم، وإلا فإن القرآن نفسه قد يكون حجة على صاحبه وحافظه «والقرآن حجة لك أو عليك»، وفي الحديث الآخر قال: «يرفع الله بهذا القرآن أقوام ويضع آخرين».



وخرجه النسائي من حديث جبير بن نفير عن عوف بن مالك عن النبي ﷺ بنحوه، وفي حديثه: فذكر ﷺ ضلالة اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله.

السبب واضح مثلما قال الله: ﴿حَمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ [الجمعة: ٥]، يعني أهملوها ولم يعملوا بها.



قال جبير: "فَلَقِيتُ شَدَّادَ بْنِ أَوْسٍ فَحَدَّثَنِي بِحَدِيثِ عَوْفٍ، فَقَالَ: صدق، أَلَا أَخْبِرُكَ بِأَوَّلِ ذَلِكَ؛ يُرْفَعُ الْخُشُوعُ حَتَّى لَا تَرَى خَاشِعًا".

وخرج الإمام أحمد من حديث زياد بن لبید، عن النبي ﷺ أنه ذكر شيئاً فقال: «ذلك عند أوانٍ ذهابِ العلم» فذكر الحديث، وقال فيه: «أو ليس اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل لا يعملون بشيءٍ ممَّا فيها!».

هذا المقصد، فهو عنده التوراة وعنده الإنجيل ولا يعمل بشيء منها ﴿حَمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ [الجمعة: ٥] أي: لم يعملوا بها.



ولم يذكر ما بعدها.

ففي هذه الأحاديث أن ذهاب العلم بذهاب العمل، وأن الصحابة فسروا ذلك بذهاب العلم الباطن من القلوب وهو الخشوع.

ذهاب العلم بذهاب العمل، وأعظم ما يكون في باب العمل عمل القلب.. في الدرجة الأولى عمل القلب: الخشوع والإخلاص والخشية، وغير ذلك من الأعمال القلبية.

ومن المعلوم أن صلاح الباطن الذي هو القلب صلاحٌ للظاهر كما قال عليه الصلاة والسلام: «ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».



وكذا روي عن حذيفة: "إِنَّ أَوَّلَ مَا يُرْفَعُ مِنَ الْعِلْمِ الْخُشُوعُ".

فإن العلم علمان كما قال الحسن: "عِلْمُ اللِّسَانِ، فذاك حُجَّةُ اللَّهِ عَلَى ابْنِ آدَمَ، وَعِلْمُ فِي الْقَلْبِ فذاك الْعِلْمُ النَّافِعُ".

علم القلب المراد به الخشوع، الخشية، الخوف، الرجاء، المحبة، الإخلاص.



وروي عن الحسن مرسلاً عن النبي ﷺ.

لم يثبت مرفوعاً وإنما هو من كلام الحسن.



وفي «صحيح مسلم» عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: "إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفْعٌ".

هذا كلام عظيم جداً للصحابي الجليل عبد الله بن مسعود جدير بأن تتأمله، وهو في «صحيح مسلم» كما ذكر المصنف رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، يقول: (إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ) أي لا يجاوز مخارج الصوت، يعني يكون يعتني فقط بمخارج الصوت عناية دقيقة، يضبط المخارج كل حرف يعطيه حقه من مخرجه بإخراج صحيح، بطريقة صحيحة لكن قلبه لا يفقه شيئاً، يعني كل عنايته وكل همته متجهة من الترقوة وما فوق، لأن مخارج الصوت أقصاها الحروف الجوفية فهي عند الترقوة، فهو معتنى بالقرآن من الترقوة وما فوق.. الحنجرة فما فوق معتنى بذلك وضابط للقرآن قراءة وترتيلاً، لكن فقهاً وفهماً وعملاً ليس له حظ من ذلك.

يقول: "إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ وَرَسَخَ فِيهِ نَفْعٌ"، فينفع القرآن قارئه إذا وقع ورسخ في القلب، ولهذا قال الله ﷻ: ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [محمد: ٢٤]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨].

والنبي ﷺ لما وصف الخوارج للصحابه قال لهم: «تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وقراءتكم مع قراءتهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم» أي أنه لا يجاوز الحناجر، بمعنى أن القلب ليس له نصيب، الفقه الذي في القلب لا نصيب لهم منه، نصيبهم منه القراءة والتلاوة فقط.



فالعلم النافع هو ما باشر القلب فأوقر فيه معرفة الله تعالى وعظمته، وخشيته وإجلاله، وتعظيمه

ومحبته، ومتى سكنت هذه الأشياء في القلب خضع فخشعت الجوارح كلها تبعاً لخشوعه.
وفي «صحيح مسلم» عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ»،
وهذا يدل على أن العلم الذي لا يوجب الخشوع للقلب فهو علم غير نافع.

يعني هو علم في نفسه نافع، لكنه غير نافع أي لصاحبه لأن صاحبه لم ينتفع به، ولهذا من الدعاء: اللهم علمني ما ينفعني وانفعني بما علمتني. فقد يكون العلم في نفسه علمًا نافعًا لكن صاحبه غير منتفع به،
فقوله: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ» هذا يشمل التعوذ من أمرين:

يشمل التعوذ من علم في نفسه غير نافع.

ويشمل التعوذ من علم لا ينتفع به صاحبه.



وروي عنه ﷺ «أَنَّهُ كَانَ يَسْأَلُ اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا».

وفي حديث آخر، قال: «سَلُوا اللَّهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ».

وأما العلم الذي على اللسان فهو حجة الله على ابن آدم، كما قال النبي ﷺ: «وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ».

أي الذي في اللسان فقط هذا حجة الله على بني آدم، ولهذا قال نبينا ﷺ في الحديث وهو في «صحيح مسلم» قال: «وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ» ومعنى (حجة لك) أي إن عملت به و(عليك) إن لم تعمل به.
ولا يكون المرء من أهل القرآن إلا إذا عمل بالقرآن، أما مجرد الحفظ له والإتقان لترتيبه وتجويده وما إلى ذلك لا يكون بذلك من أهل القرآن، ولهذا جاء في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهُ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ بِهِ»، فلا يكون المرء من أهل القرآن إلا إذا عمل بالقرآن، أما إذا حفظ القرآن ولم يعمل به لا يكون بذلك من أهله.



فإذا ذهب من الناس العلم الباطن بقي الظاهر على الألسنة حجة، ثم يذهب هذا العلم الذي هو حجة بذهاب حملته، ولا يبقى من الدين إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه، فيبقى القرآن في المصاحف ثم يُسرى به في آخر الزمان فلا يبقى منه في المصاحف ولا في القلوب شيء.

وهذا معنى قول السلف "منه بدأ وإليه يعود"، ومعنى قولهم: "إليه يعود" أي يُسرى به في آخر الزمان،

فیصبح الناس لا يجدون فی المصاحف قرآنًا.



ومن هنا قَسَمَ من قَسَمَ من العُلَمَاءِ العلم إلى باطن وظاهر، فالباطن: ما باشر القلوب فأثمر لها الخشية والخشوع، والتعظيم والإجلال، والمحبة والأنس والشوق.
والظاهر: ما كان على اللسان، فبه تقوم حجة الله على عباده.

هذا مثل ما تقدم معنا في كلام الحسن قال: "العلم علمان: علم اللسان وعلم القلب".



وكتب وهب بن منبه إلى مكحول: "إِنَّكَ امْرُؤٌ قَدْ أَصَبْتَ بِمَا ظَهَرَ لَكَ مِنْ عِلْمِ الْإِسْلَامِ شَرَفًا فَاطْلُبْ بِمَا بَطَنَ مِنْ عِلْمِ الْإِسْلَامِ مَحَبَّةً وَزُفَى".

يعني أن تنال محبة الله والزُفَى لديه والمنزلة العالية، اطلب ذلك، اتجه بهمتك إلى هذا الأمر.



وفي رواية أخرى أنه كتب إليه: "إِنَّكَ قَدْ بَلَغْتَ بِظَاهِرِ عِلْمِكَ عِنْدَ النَّاسِ مَنْزِلَةً وَشَرَفًا، فَاطْلُبْ بِبَاطِنِ عِلْمِكَ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً وَزُفَى، وَاعْلَمْ أَنَّ إِحْدَى الْمَنْزِلَتَيْنِ تَمْنَعُ مِنَ الْأُخْرَى".

أي أنه إذا اتجه إلى المنزلة التي عند الناس والمكانة، والشهرة والصيت.. وإلى آخره لا يحصل الأخرى، لكن سبحانه الله إذا اتجه للأخرى وهي المنزلة عند الله ﷻ يحصل خير الدنيا والآخرة، فيحصل في الدنيا الذكر الحسن ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء] ويحصل أيضًا الرفعة والمنزلة العلية عند الله ﷻ.



فأشار وهب بعلم الظاهر إلى علم الفتاوى والأحكام، والحلال والحرام، والقصص والوعظ وهو ما يظهر على اللسان.

وهذا العلم يوجب لصاحبه محبة الناس له، وتقديره عندهم، فحذره من الوقوف عند ذلك، والركون إليه والالتفات إلى تعظيم الناس ومحبتهم؛ فإن من وقف مع ذلك فقد انقطع عن الله وانحجب بنظره إلى الخلق عن الحق.

وأشار بعلم الباطن إلى العلم الذي يباشر القلوب، فيحدث لها الخشية والإجلال والتعظيم، وأمره أن يطلب بهذا المحبة من الله والقرب منه والزُفَى لديه.

وهذا هو الذي أُشير إليه فيما تقدم "إصلاح الباطن"، إصلاح الباطن بالخشية، بالخشوع، بالمحبة، بالإخلاص، طلب الزلفى عند الله ﷻ، هذه المعاني كلها تتعلق بالقلب وإصلاحه وإقامته على الطريق القوام السداد.



وكان كثير من السلف كسفيان الثوري وغيره يُقسِّمون العلماء ثلاثة أقسام: عَالِمٌ بِاللَّهِ عَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ. ويشيرون بذلك إلى من جمع بين هذين العلمين المشار إليهما الظاهر والباطن، وهؤلاء أشرف العلماء، وهم الممدوحون في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] إلى قوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقال كثير من السلف: لَيْسَ الْعِلْمُ كَثْرَةُ الرِّوَايَةِ وَلَكِنَّ الْعِلْمَ الْخَشْيَةُ. وقال بعضهم: كَفَى بِخَشْيَةِ اللَّهِ عِلْمًا، وكفى بِالْإِغْتِرَارِ بِاللَّهِ جَهْلًا. ويقولون أيضًا: عَالِمٌ بِاللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللَّهِ.

هذا القسم الثاني، فهم يقسمونهم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: عَالِمٌ بِاللَّهِ عَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ.

الثاني: عَالِمٌ بِاللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللَّهِ.



وهم أصحاب العلم الباطن الذي يخشون الله، وليس لهم اتساع في العلم الظاهر.

هذا قسم (عَالِمٌ بِاللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِأَمْرِ اللَّهِ) يعني يخشون الله، في قلبه خشية لكن ليس عنده علم. والخشية التي بدون علم والخشوع الذي بدون علم قد يوقع الإنسان في أعمال هي من البدع التي ما أنزل الله بها من سلطان، ولهذا بعض أهل البدع قد يخشعون خشوعاً قليلاً ويكون بكاءً صادقاً، لكن على بدعة وعلى أعمال محدثة ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان.



ويقولون أيضًا: عَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ لَيْسَ بِعَالِمٍ بِاللَّهِ.

(عَالِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ) هذا القسم الثالث أي: أنه عالم بحدوده وشرعه وأحكامه، ولكن "ليس عالم بالله"

ليس في قلبه خوف أو خشية من الله.



وهم أصحاب العلم الظاهر الذين لا نفاذ لهم في العالم الباطن، وليس لهم خشية ولا خشوع، وهؤلاء مذمومون عند السلف.

وكان بعضهم يقول: هَذَا هُوَ الْعَالِمُ الْفَاجِرُ.

وهؤلاء الذين وقفوا مع ظاهر العلم ولم يصل العلم النافع إلى قلوبهم ولا شموله رائحة، غلبت عليهم الغفلة والقسوة، والإعراض عن الآخرة والتنافس في الدنيا، ومحبة العلو فيها والتقدم بين أهلها. وقد مُنِعُوا إحسان الظن بمن وصل العلم النافع إلى قلوبهم، فلا يحبونهم ولا يجالسونهم، وربما ذمهم وقالوا: ليسوا بعلماء، وهذا من خداع الشيطان وغروره، ليحرمهم الوصول إلى العلم النافع الذي مدحه الله ورسوله، وسلف الأمة وأئمتها.

ولهذا كان علماء الدنيا يبغضون علماء الآخرة، ويسعون في أذاهم جهدهم، كما سعوا في أذى سعيد بن المسيب والحسن وسفيان ومالك وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين؛ وذلك لأن علماء الآخرة خلفاء الرسل، وعلماء السوء فيهم شبهة من اليهود، وهم أعداء الرسل وقتلة الأنبياء ومن يأمر بالقسط من الناس، وهم أشد الناس عداوة وحسداً للمؤمنين، ولشدة محبتهم للدنيا لا يعظمون علماً ولا ديناً، وإنما يعظمون المال والجاه والتقدم عند الملوك.

كما قال بعض الوزراء للحجاج بن أرطاة: "إِنَّ لَكَ دِينًا وَإِنَّ لَكَ فِقْهًا".

فقال الحجاج: "أَفَلَا تَقُولُ إِنَّ لَكَ شَرْفًا وَإِنَّ لَكَ قَدْرًا".

فقال الوزير: "وَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَصْغُرُ مَا عَظَّمَ اللَّهُ وَتُعْظَمُ مَا صَغَرَ اللَّهُ".

وكثير ممن يدعي الباطن ويتكلم فيه ويقتصر عليه يذم العلم الظاهر، الذي هو الشرائع والأحكام، والحلال والحرام، ويطعن في أهله ويقولون: هم محجوبون وأصحاب قشور، وهذا يوجب القدح في الشريعة، والأعمال الصالحة التي جاءت الرسل بالحث عليها والاعتناء بها.

وربما انحل بعضهم عن التكليف وادعى أنها للعامة، وأما من وصل فلا حاجة له إليها، وأنها حجاب له، وهؤلاء كما قال الجنيد وغيره من العارفين "وصلوا ولكن إلى سَقَرٍ".

هو يتحدث هنا عن أصحاب الطرق الضالة الذين يحقرون من شأن العلم وأحكام الشريعة، والأوامر والنواهي والتفقه في دين الله، حتى إن بعضهم يعتقد أن طلب العلم الشرعي يقطع الطريق، وأن التفقه في

الذين يعيق السائر.. هكذا يعتقدون.

ويزعمون أن الوصول إنما هو بالعلم الباطن الذي يزعمون أنهم أهله وأربابه، ولهذا بعضهم يقول عن نفسه أنه وصل، ويقولون: الواصل تنقطع عنه التكاليف، يعني لا يكون مأمورًا لا بصلاة ولا بصيام ولا بصدقة ولا غير ذلك من الأعمال، ويوصف عندهم بالواصل، الواصل أي من تسقط عنه التكاليف ويستدلون على ذلك بنصوص ويحملونها على غير معناها ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] يقولون: حتى تصل إلى درجة الوصول بعد ذلك توقف عن العبادة، واليقين الموت ﴿آتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران] فاليقين هو الموت، يعني اعبد الله إلى أن تموت هذا معنى الآية.. استمر على العبادة.

هم يقولون: اليقين الوصول إلى هذه الدرجة، فكان أهل العلم يقولون: نعم وصل.. على المعنى الذي يقوله هؤلاء أن من وصل تنقطع عنه التكاليف يقولون: نعم وصل، ولكن إلى سقر يعني إلى النار؛ لأن ترك العمل وترك العبادة يفضي بصاحبه إلى النار.



وهذا من أعظم خداع الشيطان وغروره لهؤلاء، لم يزل يتلاعب بهم حتى أخرجهم عن الإسلام. ومنهم من يظن أن هذا العلم الباطن لا يُتَلَقَّى من مشكاة النبوة، ولا من الكتاب والسنة، وإنما يتلقى من الخواطر والإلهامات والكشوفات، فأساؤوا الظن بالشرعية الكاملة؛ حيث ظنوا أنها لم تأت بهذا العلم النافع الذي يوجب صلاح القلوب وقربها من علام الغيوب، وأوجب لهم الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ في هذا الباب بالكلية، والتكلم فيه بمجرد الآراء والخواطر، فضلوا وأضلوا.

وهذا ضلال آخر عند هؤلاء أصحاب الطرق الضالة حينما قللوا من شأن علوم الشريعة من جهة، وعظموا من شأن علم الباطن الذي يزعمون أنهم أربابه، وزعموا أن هذا العلم لا يتلقى من النصوص وإنما يُتَلَقَّى من الإلهامات والكشوفات، والخواطر والمنامات وأشياء من هذا القبيل ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة].



فظهر بهذا أن أكمل العلماء وأفضلهم: العلماء بالله وبأمره الذين جمعوا بين العلمين وتلقوهما - أي علم الظاهر وعلم الباطن - معًا من الوحيين - أعني: الكتاب والسنة - وعرضوا كلام الناس في العلمين معًا على ما جاء في الكتاب والسنة، فما وافق قبلوه وما خالف ردوه.

وهؤلاء خلاصة الخلق، وهم أفضل الناس بعد الرسل، وهم خلفاء الرسل حقاً، وهؤلاء كثير في الصحابة، كالخلفاء الأربعة، ومعاذ، وأبي الدرداء، وسلمان، وابن مسعود وابن عمر، وابن عباس وغيرهم.

وكذلك فيمن بعدهم كالحسن، وسعيد بن المسيب، وعطاء، وطاوس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والنخعي، ويحيى بن أبي كثير.

وفيمن بعدهم كالثوري، والأوزاعي، وأحمد، وغيرهم من العلماء الربانيين. وقد سماهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه: العلماء الربانيين، يشير إلى أنهم الربانيون الممدوحون في غير موضع من كتاب الله عز وجل.

فقال: "النَّاسُ ثَلَاثَةٌ: عَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رِعَاغٌ..."

ثم ذكر كلاماً طويلاً وصف فيه علماء السوء والعلماء الربانيين، وقد شرحناه في غير هذا الموضع. والمقصود هنا: أن التماس العلم سبب موصل إلى الجنة، وفي الحديث المعروف عن النبي صلى الله عليه وسلم: «إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا»، قالوا: وما رياض الجنة؟! قال: «حِلَقُ الذِّكْرِ».

يعني مجالس العمل التي يُبين فيها الحلال والحرام، وتوضح فيها الأحكام، وأخذاً من هذا الحديث تجد عدد من العلماء سموا كتبهم باسم فيه ارتباط بهذا المعنى الذي أشار إليه النبي عليه الصلاة والسلام، مثل «رياض الصالحين»، مثل «الروض الأنف»، مثل «الرياض الناضرة» للشيخ عبد الرحمن السعدي، «الروض المربع».. كتب كثيرة بهذا الاسم؛ لأن العلم روضة يجد فيها طالب العلم من أصناف الزهور والأشجار والثمار، والقطوف الدانية والأكل اللذيذ والجنى الطيب، فلا يزال يتذوق من ذلك ثمرة تلو أخرى يجنيها من مجالس العلم وكتبه.



وكان ابن مسعود إذا ذكر هذا الكلام يقول: "أَمَّا أَنِّي لَا أَعْنِي الْقُصَّاصَ وَلَكِنْ حِلَقَ الْفَقْهِ".

والقصاص الذين لا شأن لهم بعلم الشريعة وإنما يعظون الناس بالقصص والحكايات المختلفة، وقد قال الإمام أحمد: أكذب الناس القُصَّاص، يعني لأنهم ينسجون قصصاً يريدون بها التأثير على الناس، فيختلقون قصصاً وحكايات وأشياء من هذا القبيل، فابن مسعود يقول: (لا أعني القُصَّاصَ ولكن أعني حِلَقَ الْفَقْهِ) يعني التي يبين فيها الحلال والحرام ودين الله بالنصوص والأدلة، بكلام الله وكلام رسوله

صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.



وروي عن أنس معناه أيضًا.

وقال عطاء الخراساني: "مَجَالِسُ الذِّكْرِ مَجَالِسُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، كَيْفَ تَشْتَرِي وَتَبِيعُ، وَتُصَلِّي وَتَصُومُ، وَتَنْكِحُ وَتُطَلِّقُ، وَتَحُجُّ وَأُشْبَاهُ هَذَا".

هذا كلام عظيم جدًا لعطاء الخراساني ما معنى قول النبي ﷺ: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا»، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: «حِلُّ الذِّكْرِ» ما المراد بحلق الذكر، وما المراد بمجالس الذكر؟ قال: (مَجَالِسُ الذِّكْرِ مَجَالِسُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ، كَيْفَ تَشْتَرِي، كَيْفَ تَبِيعُ، كَيْفَ تُصَلِّي، كَيْفَ تَصُومُ، كَيْفَ تَنْكِحُ، كَيْفَ تُطَلِّقُ، كَيْفَ تَحُجُّ.. وَأُشْبَاهُ ذَلِكَ) هذه مجالس الذكر التي يتعلم فيها المرء دينه، ويتفقه في دين الله ﷻ، من خلال كلام الله وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.



وقال يحيى بن أبي كثير: دَرَسُ الْفِقْهِ صَلَاةٌ.

أي: أنهم كانوا يعدون درس الفقه عبادة وهو من أجل العبادة؛ لأن العبادة أصلاً لا تُعرف إلا بالفقه.



وكان أبو السوار العدوي في حلقة يتذاكرون العلم ومعهم فتى شاب فَقَالَ لَهُمْ: قُولُوا: سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، فَعَضِبَ أَبُو السَّوَارِ، وَقَالَ: وَيْحَكَ، فِي أَيِّ شَيْءٍ كُنَّا إِذَا؟!

هذا كانوا في مجلس علم وبيّن لهم الأحكام والحلال والحرام، فشاب متحمّس في المجلس قال: قولوا: سبحان الله، يعني كأن القوم كانوا في غفلة.. فقال: سَبِّحُوا قولوا: سبحان الله، قولوا: الحمد لله، فقال له أبو السوار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ويحك، في أي شيء كنّا إذا؟!) مجالس العلم الحلال والحرام هي ذكر الله، من أعظم الذكر لله ﷻ أَنْ يُفَقَّهَ النَّاسُ فِي دِينِهِمْ وَفِي عِبَادَتِهِمْ لِرَبِّهِمْ، أَنْ تُبَيَّنَ لَهُمُ الْأَحْكَامُ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «ما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة، وحفَّتْهم الملائكة وذكّرتهم الله فيمن عنده».



والمراد بهذا أن مجالس الذكر لا تختص بالمجالس التي يذكر فيها اسم الله بالتسبيح والتكبير والتحميد ونحوه؛ بل تشمل ما ذكر فيه أمر الله ونهيه وحلاله وحرامه وما يحبه ويرضاه، فإنه ربما كان هذا الذكر أنفع

من ذلك؛ لأن معرفة الحلال والحرام واجبة في الجملة على كل مسلم، بحسب ما يتعلق به في ذلك، وأما ذكر الله باللسان، فإن أكثره يكون تطوعاً، وقد يكون واجباً كالذكر في الصلوات المكتوبة.

وأما معرفة ما أمر الله به ونهى عنه، وما يحبه ويرضاه، وما يكرهه وينهى عنه فيجب على كل من احتاج إلى شيء من ذلك أن يتعلمه.

ولهذا روي: "طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ".

فإنه يجب على كل مسلم معرفة ما يحتاج إليه في دينه، كالطهارة والصلاة والصيام.

ويجب على كل من له مال معرفة ما يجب عليه في ماله من زكاة ونفقة، وحج وجهاد، وكذلك يجب على كل من يبيع ويشترى أن يتعلم ما يحل ويحرم من البيوع، كما قال عمر رضي الله عنه: "لَا يَبِيعُ فِي سُوقِنَا إِلَّا مَنْ قَدْ تَفَقَّهَ فِي الدِّينِ" خرجه الترمذي.

إذا لم يتفقه في الدين يعني في الأحكام الشرعية التي تتعلق بالبيوع، فإنه سيدخل ويدخل غيره في تعاملات وبيوع محرمة، ولهذا من اللطائف المفيدة أن محمد بن الحسن تلميذ أبي حنيفة قيل له رضي الله عنه: ألا تؤلف لنا كتاباً في الورع، قال: قد ألّفت كتاباً في البيوع.

يقصد إذا كنت تريد أن تكون ورعاً وتفقه في المعاملات الشرعية كيف تبيع كيف تشتري، ما الحلال ما الحرام تكون ورعاً ورعاً صحيحاً؛ لكن إذا كان الإنسان عنده ورع ولكن بدون علم فقد يمنع شيئاً أحله الله، قد يحرم حلالاً، قد يكره مستحباً أو جائزاً.. ويقع في أشياء من هذا القبيل، فقالوا: ألّف لنا كتاباً في الورع، قال: ألّفت كتاب في البيوع يعني يكفيكم، فإذا عرفتم البيوع وطرائقها والصحيح منها والفساد وما إلى ذلك يكون الورع بذلك، ومقصوده أنه بدون علم شرعي لا يكون ورعاً صحيحاً.

ولهذا أيضاً قيل قديماً: كيف يتقي من لا يدري ما يتقي؟ كيف يتقي وكيف يتورع الذي لا يدري ماذا يتقي وما يتورع منه.



ويروى بإسناد فيه ضعف عن علي رضي الله عنه قال: "الْفِقْهُ قَبْلَ التَّجَارَةِ، إِنَّهُ مَنْ اتَّجَرَ قَبْلَ أَنْ يَتَفَقَّهَ ارْتَطَمَ فِي الرِّبَا ثُمَّ ارْتَطَمَ".

أي ثم هلك، يقع في الربا ثم يهلك.



وسئل ابن المبارك: ما الذي يجب على الناس من تعلم العلم؟ قال: ألا يقدم الرجل على شيء إلا بعلم

يسأل ويتعلم، فهذا الذي يجب على الناس من تعلم العلم، ثم فسره: "لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ وَاجِبٌ أَنْ يَتَعَلَّمَ الزَّكَاةَ، فَإِذَا كَانَ لَهُ مَائَتَا دِرْهَمٍ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ كَمْ يُخْرِجُ وَمَتَى يُخْرِجُ وَأَيْنَ يَضَعُ، وَسَائِرُ الْأَشْيَاءِ عَلَى هَذَا".

لابد إذا كان عنده مال وبلغ النصاب وجب عليه أن يتعلم الزكاة، لأن الزكاة فريضة وهي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين والصلاة، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله ﷻ، فإذا بلغ ماله النصاب وجب عليه أن يفقه ماذا يجب عليه في المال، ومتى يجب، وأين يضع المال.. كل ذلك لا بد أن يتعلمه في ضوء الأدلة، أما إذا كان فقير وليس عنده مال فهذا العمل ليس بواجب عليه لأنه ليس عنده مالا يبلغ القدر الواجب الذي لا يتم الواجب إلا به وهو تعلم ما أوجبه الله ﷻ عليه من أحكام تتعلق بالزكاة، فإذا وجبت عليه الزكاة وجب عليه تعلم الأحكام التي تتعلق بها.



وسئل الإمام أحمد رحمه الله عن الرجل ما يجب عليه من طلب العلم؟ فقال: "مَا يُقِيمُ بِهِ الصَّلَاةَ وَأَمَرَ دِينَهُ مِنَ الصَّوْمِ وَالزَّكَاةِ، وَذَكَرَ شَرَائِعَ الْإِسْلَامِ. وَقَالَ: يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَعَلَّمَ ذَلِكَ".
وقال أيضًا: "الَّذِي يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ فِي صَلَاتِهِ وَإِقَامَةِ دِينِهِ".

العلم فرض عيني وفرض كفائي، ومن العلم ما هو علم مستحب ليس بواجب، ويختلف هذا باختلاف العلم نفسه واختلاف أيضًا حال المكلف، والذي لا بد منه من العلم هو ما يقيم به واجبات الدين من صلاة وزكاة وصيام وغير ذلك من شرائع الإسلام.



واعلم أن علم الحلال والحرام علم شريف، ومنه ما تعلمه فرض عين، ومنه ما هو فرض كفاية. وقد نص العلماء على أن تعلمه أفضل من نوافل العبادات، منهم أحمد وإسحاق. وكان أئمة السلف يتوقون الكلام فيه تورعًا؛ لأن المتكلم فيه مخبر عن الله بأمره ونهيه، مبلغ عنه شرعه ودينه.
وكان ابن سيرين إذا سُئِلَ عَنْ شَيْءٍ مِنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَتَبَدَّلَ، حَتَّى كَانَهُ لَيْسَ بِالَّذِي كَانَ.

أحيانًا بعض المسائل العظيمة من مسائل الحلال والحرام تُذكر في بعض المجالس في عوام وتجد بعضهم يرفع صوته: لا هذا حلال، والآخر يقول: لا هذا حرام، وكل يعطي من عنده، وكان السلف لما يسأل عن مسألة في الحلال والحرام يتغير لونه خوفاً؛ لأنه موقع ومُخبر عن الله، فعندما يقول هذا حلال

يعني أحله الله، حرام أي حرّمه الله ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾
[النحل: ١١٦]



وقال عطاء بن السائب: "أَدْرَكْتُ أَقْوَامًا إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُسْأَلُ عَنِ الشَّيْءِ فَيَتَكَلَّمُ وَإِنَّهُ لَيُرْعَدُ" - أي خائف -.

وروي عن مالك أنّه كان إذا سئل عن مسألة، كأنّه بين الجنة والنار.

أي أنه خائف بأن يقول على الله أو أن يخطئ في بيان دين الله أو أن يحكم بشيء ليس هو حكم الله، يكون خائفًا مشفقًا، وهذا الخوف منجاة لصاحبه بخلاف الذي يتكلم ولا ورع عنده ولا خوف ولا مبالاة.



وكان الإمام أحمد شديد التورع في إطلاق لفظ الحرام والحلال أو دعوى النسخ، ونحو ذلك مما يجسر عليه غيره كثيرًا، وأكثر أجوبته: أرجو وأخشى، أو أحب إلي، ونحو ذلك.
وكان هو ومالك وغيرهما يقولون كثيرًا: لا ندري.

وكان أحمد يقول ذلك في مسألة يُذَكَّرُ للسلف فيها أقوالًا عديدة، ويريد بقوله "لا أدري" أي الراجح المفتى به من ذلك.

ومن مجالس الذكر أيضًا: مجالس العلم التي يُذَكَّرُ فيها تفسير كتاب الله أو يروى فيها سنة رسول الله

ﷺ.

فإن كانت رواية الحديث مع تفسير معانيه، فذلك أكمل وأفضل من مجرد رواية ألفاظه، ويدخل في الفقه في الدين كل علم مستنبط من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، سواء كان من علوم الإسلام التي هي الأعمال الظاهرة والأقوال، أو من علوم الإيمان التي هي الاعتقادات الباطنة، وأدلة ذلك وبراهينه المقررة في الكتاب والسنة، أو من علوم الإحسان التي هي علوم المراقبة والمشاهدة بالقلب، ويدخل في ذلك علم الخشية والمحبة والرجاء والإنابة، والصبر والرضا، وغير ذلك من المقامات.
وكل ذلك قد سماه النبي ﷺ في حديث سؤال جبرئيل له عنه: دينًا.

أيضًا في الحديث لما قال عليه الصلاة والسلام: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»، فالفقه في الدين يتناول الفقه الأكبر الذي هو العقيدة، ويتناول الأحكام ويتناول أعمال القلوب، فالفقه في ذلك كله هو من الفقه في الدين.



فالفقه فيه من الفقه في الدين، ومجالسه من أفضل مجالس الذكر التي هي من رياض الجنة، وهي أفضل من مجالس ذكر الله بالتسبيح والتحميد والتكبير؛ لأنها دائرة بين فرض عين أو فرض كفاية، والذكر المجرد تطوع محض.

وقد دخل بعض السلف مسجد البصرة فرأى فيه حلقتين في إحداهما قاص وفي الأخرى فقيه يعلم الفقه، فصلّى ركعتين واستخار الله في الجلوس إلى إحداهما، فنعس فرأى في نومه قائلاً يقول له: أو قد سويت بينهما؟! إن شئت أريناك مقعد جبرائيل عليه السلام من فلان يعني: الفقيه الذي يُعَلِّم العلم. وسنذكر فيما بعد النصوص الدالة على فضل العلم على أنواع العبادات من الذكر وغيره إن شاء الله تعالى.

وهذه المنامات لا تُذكر على أنها عمدة في الباب وإنما يُستأنس بذكرها.



وكان زيد بن أسلم من جلة علماء المدينة، وكان له مجلس في المسجد يذكر فيه التفسير والحديث والفقه وغير ذلك، فجاء إليه رجل فقال له: إني رأيت بعض أهل السماء وهو يقول لأهل هذا المجلس: "هَؤُلَاءِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ آمِنُونَ، ثُمَّ أَرَاهُ أَنْزَلَ عَلَى أَهْلِ الْمَجْلِسِ حُوتًا طَرِيًّا وَوَضَعَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، وَجَاءَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا خَرَجُوا مِنْ هَذَا الْبَابِ وَالنَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: "انْطَلِقُوا بِنَا إِلَى زَيْدٍ نُجَالِسُهُ وَنَسْمَعُ مِنْ حَدِيثِهِ. فجاء النبي ﷺ حَتَّى جَلَسَ إِلَى جَنْبِكَ فَأَخَذَ بِيَدِكَ، فَلَمْ يَبْقَ زَيْدٌ بَعْدَ هَذِهِ الرُّؤْيَا إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى مَاتَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى".

أي أن هذه رؤيا منامية، والرؤى المنامية هي مبشرات، حتى إن النبي ﷺ قال لما سأله عبادة بن الصامت عن قول الله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤] قال: «هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له»، فالرؤى الصالحة هي من المبشرات.



ومع ما ذكرنا من تفضيل العلم على القصص؛ فالعالم لا يستغني أحياناً عن موعظة الناس والقصص عليهم، وإزالة القسوة عن قلوبهم، بالتذكير بالله وأيامه، فإن القرآن يشتمل على ذلك كله، والفقيه العالم حقاً هو من فهم كتاب الله واتباع ما فيه.

كما قال عليّ رضي الله عنه: "الْفَقِيهُ حَقًّا مَنْ لَا يُقْنَطُ النَّاسُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَلَا يُرَخِّصُ لَهُمْ فِي مَعَاصِي اللَّهِ، وَلَا

يَدْعُ الْقُرْآنَ رَغْبَةً عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ".

وقد كان النبي ﷺ يَتَخَوَّلُ أَصْحَابَهُ بِالْمَوْعِظَةِ أَحْيَانًا؛ خَشْيَةَ السَّامَةِ عَلَيْهِمْ".

نكتفي بهذا، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وصلّى الله وسلّم على نبينا محمد وآله وصحبه.